منزل السُوَيْداء

رحلة ليل

خرج عمر حين أعني من المدينة او عزل عنها كأنه يستخفي . خرج في شعبان من سنة ثلاث وسبعين ، وخرج في غير موكبه ذي الثلاثين بعيراً الذي كان قد دخل به يوم ولي امرها ، واصطحب معه في خروجه مولاه الفقيه التقي الصالح مزاحم بن ابي مزاحم ، وخرج عمر والمدينة تتمثل في ذهنه وتتراءى امام خاطره وتتلهف نفسه عليها ، ولو كان خروجه نهاراً لما غاب طرفه عنها حتى تغيب في لجة البادية من خلفه ، ولكنه خرج ليلاً والظلام يغرقها ويمحق معالمها ، وكانت وهي تغيب عنه في الظلام كأن لم تغب ، فهو يحفظها في صدره فيراها قوماً قوماً وحياً حياً وداراً داراً ، الاشراف والموالي والتجار والعمال وباعة الخَبَط والحَمْط ١١٣ وكل الناس .

وما كادت قدمه تنتقل عنها ، حتى تذكر قول رسول الله

(١١٣) الخبط ورق ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويضرب بالماء حتى يتلزج فتوجره الابل تداوي به. والحمط الحامض أو المر من كل شيء.

صلى الله عليه وسلم: « والذي نفس محمد بيده ما خرج أحد من المدينة رغبة عنها الا ابدلها الله خيراً منه او مثله » ، او تـــذكر قوله : « المدينة تنفي خبثها » فاضطرب قلبه ومال الى مولاه مزاحم يقول له : يا مزاحم ، نخاف ان نكون ممن نفت المدينة ! [١١٤]

وكان مزاحم متشائماً او نزعت نفسه الى التشاؤم ، فكاد يختلج في بحور المظنة ، ثم اخطأ فرأى حظه وحظ عمر في معارج القمر ومطالع النجوم ، وكان الليل قد اطلع القمر مستويَ الدوران باهر الضوء ، ولكنه كان ينزل بدارة من دارته يقال لها الدّبران [١١٥] كانوا في الخرافات القديمة يقولون انها مطلع هزيمة ومنزلة شؤم . وبينما عمر ومزاحم يمضيان في الطريق التي كان مهّدها عمر من قبل فعـدّل ثناياها وسوّى عقابها ـ نظر مزاحم الى القمر فعرف المنزلة وظن الهزيمة ، فارتجف قلبه ، ولكنه كتم ما به ، واحب ان يترفق بعمر فلا يطلعه على ما عرف ، وخاف ان تأمّل عمرُ القمرَ ان يتنبّه الى منزلة الدبران فيزيد حزنه ، فأجمع امرَه على ان يَلفتَ نظره الى ضوء القمر وتمام استدارته ـ حسن طلعته ، ليصرف عمر نفسه اليها ، فقال له: الا تنظر الى القمر ! ما احسن استواءه في هذه الليلة ! فنظر عمر فعرف ما وقعت عليه نفسُ مزاحم .

---

(١١٤) الطبري ج ٥ ص ٥٦

(١١٥) الدبران منزلة من ثمانية وعشرين نجماً هن امات المنازل ، والدبران الكوكب الأحمر الذي على اثر الثريا بين يديه كواكب كثيرة مجتمعة ، من أدناها اليه كوكبان صغيران يكادان يلتصقان ، يقول الأعراب هما كلباه والبواقي غنمه أو نياقه ، وسمي بالدبران لأنه دبر الثريا أي خلفها ونوؤه ثلاث ليال وقيل بل هو ليلة وهو غير محمود عندهم ـ الأزمنة والأمكنة ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٣١٥

ولم يكن عمر جاهلاً بمنازل القمر ولا بنفس مزاحم ، ونفسُ مزاحم كانت في حزن واضطراب . ولا ينظر الحزين الى الأشياء الا من جانبه الحزين ، فنظر عمر ما استكنّ في نفس صاحبه وما خبأه عنه فقال له : كأنك اردت ان تُعلمني أن القمر بالدبران ؟ فلم يجب مزاحم ، فقال عمر : يا مزاحم ، انا لا نخرج بشمس ولا قمر ، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار ! [١١٦]

واستمسك عمر دون صاحبه وطرح عن نفسه التشاؤم ومطالع النجوم ، فلو كانت الأمور تجري وراء التفاؤل والتشاؤم لنامت الجهود وانطفأت وقدات النفوس ، وما خرج عمر من المدينة الا لأمر بيّنه ، وسيمضي فيه ، حتى لو نزل القمر واقام طول عمره في الدبران !

وان عمر ليعلم انه لا طَيْر الا على متطير ، وانما هو شيء يوافق شيئاً احياناً ، وباطله كثير ، او كله باطل ، وانه ليعلم ان الاسلام اثبت الفأل واستحسنه وابطل الطِّيَرَة ونهى عنها . ومع ان النفوس تميل الى شيء من الباطل ساعة تأزم بها الامور فإن الامور الكائنة محت من نفس عمر اشتياقه الى فأل او زجر من اشكال الفلك ، ولو استسلم عمر حينئذ لوجوه الاستدلال من حركات النجوم وعَدَل الى التكهن لصدّق بكثير من الظنون والأباطيل ، ولكنه خرج من المدينة لشيء غير ذلك كله . انه خرج ليُعْمِل رويّته ويرسل فكره ، ولا غنى له عما اراد الا اذا اراد ان يظل لَقَىً تلعب به الأيدي وتستخف به النفوس

(١١٦) ابن عبد الحكم ص ٢٨

والأبصار !

ومن ثمّ اخطأ مزاحم واصاب عمر ، لأن الوالي المعزول كشف عن عينيه الغطاء ، وافاق من نومه ، ثم ارتحل يعدّل الثنايا التي لم تتعدل ، ويحطم العقاب التي لم تتحطم ، ولكن بعد ان يحبس نفسه ويتألم ، ثم يتعلم الفقه الاكبر الذي لم يتعلمه من قبل ، فان الفقيه الصغير خليق ان يتحطم كالجاهل على انياب الصخور اذا لم يتسلقها خفيفاً ، او يسبح عليها طائرا !

وانطلق عمر ومزاحم في طريق الخارج الى الشام حتى اتيا مقاطعة السويداء ، فنزل عمر الى داره بها ، ثم لزمها مفكراً يتذكر ، ولعل اول ما ذكره حين ذلك وصية ابيه عبد العزيز له اذ قال : اتق الله وأحسن نيتك في عملك فانه لادين لمن لا نية له ، وأحسن تدبير مالك فانه لا مال لمن لا تدبير له ، وارفق بمن تعامله لانه لا عيش لمن لا رفق له ، وتجوّز في شهواتك فانه لا عقل لمن لا يغلب هواه [١١٧]

الفقه الاصغر

ولم يَرَ عمر ان يبقى بالمدينة ليلقى كيد الوليد ، او يستمع لما يُرْجِفُ الناس به ، او يرى الكيد لاهل العراق واهل الحجاز بعينيه دون ان يستطيع الدفاع عنهم ، فرأى ان يخرج من المدينة ليخلو الى نفسه ويرجع اليها ، لعله يجد سبيلاً الى الراحة مما لحق به . وكان عمر قد اصبح من قبل عالماً محدثاً وفقيهاً مجتهداً دونه اكثر فقهاء الحجاز وكل فقهاء الشام والآفاق ، ولكنّ الفقه والعلم

(١١٧) الحكمة الخالدة ص ١٨٥

والاجتهاد ـ لم يكن كل ذلك ليصونه من الاخطاء او ينجيه من الزلل ولا سيما حين ينزوي الفقه في صولة الحكم ويرتدي العلم الغضّ ثوب الولاية ويمسك بعصا السلطان .

كان عمر يعرف كل ذلك الفقه الاصغر ، كان يعرف الجدل والمناظرة والخصومة ، ويشتط في ضرب الرأي ويقسو في انفاذ العقوبة ، ولكنه لم يكن يعرف حرفاً واحداً من الفقه الاكبر الذي عرفه فيما بعد ، وصار يوحي به الى الناس ليعلموه اولادهم : القناعة وكف الأذى [١١٨]

الظلم الشامل

وحين رجع عمر الى نفسه رآها كالآلة القديمة الصدئة لا تدور الا اذا تكشف عنها الصدأ وبلّها الزيت ، ففطن الى معانٍ في العظات والوصايا لم يكن فطن اليها من قبل ، ونظر في وصية ابيه له فاذا هو لا يدري طريقاً اختطها ولا سبيلا رسمها ولا نية انتواها . ونظر فاذا هو لم يحسن تدبير ماله فانه كان ينفقه كله في الثياب والطيب ، بل ان هناك ما هو افدح واشد كربا ، ذلك ان المال الذي ينفقه على نفسه ليس له حق فيه ! ثم نظر فاذا هو لم يرفق بمن عامله ، واذا هو قد بالغ في القسوة فضرب على المدينة البعوث ثم قتل خبيباً ، ثم نظر فاذا هو لم يتجوّز في شهواته فغنى وطرب وصفق وترغ وردّ نصيحة القرظيّ له حين جرّ ثوبه ، ثم ذابت عند الوليد كل القرابين التي تقرب بها اليه .

---

(١١٨) ابن الجوزي ص ٢٣٩

ثم انطلقت نفس عمر من محبسها ، وخرج من ذاته الضيقة ونظر حوله فاذا المدينة قد عادت تحت وطأة الولاة القساة وكادت تودع الحياة او عاد الحجاز كله تفارقه الروح ، ثم دار ببصره فوق الأرض كما تدور عين الشمس وجعل يتأملها بلداً بلداً فاذا نار المظالم تتأجج ، واذا البلية غامرة واذا عالَم بكامله يصرخ من ضياعه ، وأمةٌ عن بكرة أبيها تفقد ذاتها ، واذا أحدٌ من القادرين لم يفعل شيئاً لهؤلاء العباد وانما الأمراء منصرفون عن رضا هؤلاء لارضاء الوليد وعمر كان معهم ، ثم تعاظم الوليد فلم يرض عن عمر حتى بعد أن أغضب الناس .

وكان الوليد بالشام قد سلط أولاده على أهل حمص يأكلون أموالهم وينتهبون أراضيهم ويمتلكون حوانيتهم : عمر وعباس وروْح أولاد الوليد كل منهم أصاب أهل البلد بغُرم فادح ، وأبوهم يعينهم على المنهبة ويكتب لهم بها السجلات . ورآه عمر قد أساء الى نفسه وولده فتزوج من الجواري من ليست له بكفء فأولدها الجبابرة المستكبرين ، ورآه ولّى على بعض الجند من أولاده من ليست له كفاءة الا أنه ولده وهو يحبه .

والحجاج بن يوسف بالعراق وما وراءه يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام ، وقد أصاب أهل العراق منه ومن ولاة بني أمية أكثر مما أصاب غيرهم من المظالم ١١٩ ، وقد أمرّ الحجاج السيوفَ على الحلاقيم ، فالعراق كله يخورُ في دمائه ، وقرة بن شريك بمصر أعرابيّ جلف ، قد أخذ المعازف واللهو والشراب

(١١٩) المعارف ص ١٥٩

بأذن من الوليد ، أما المصريون وأموالهم فله حلال ونُهبَى . ومحمد ابن يوسف أخو الحجاج الثقفي على اليمن . وعلى مختلف البلدان أمثال هؤلاء العمال . ومظالمهم تزداد وتربو كلما ازداد زمانهم وربا سلطانهم ، وكانوا كما قال العتبيّ فيهم : وتخلّق الأمراء بأخلاق العوام ، فصار لهم رفق في اللؤم وخُرْق في الحرص ، لو أمكنهم قاسموا الطير أرزاقها [١٢٠]

فكان عمر كلما تنقل خاطره بين هذه البلدان فرأى أولئك أمراء الناس فزع وهاله الأمر فدعا الله قائلاً: امتلأت الارض ـ والله ـ جوراً ، فأرح الناس ! [١٢١]

أول التوبة

نظر عمر في ذلك كله ، وفيما هو اكثر منه ، فاذا هو عيّ لا يرى للداء برءا ، إلا أن يتولاه رجل من غير الطراز الذي هم عليه ، ونظر الى نفسه فرآها لو استُصْلِحت لقدرت على الشفاء والبرء ، وما لم يبدأ هو بنفسه ليكون قدوة ومثالا فلن يكون للناس صلاح !

ولم تكن هذه النوبةَ الأولى التي انتابت نفسه ، ولكن التوبة كانت تراوحه الحين بعد الحين ، والخير يطلع على نفسه مطلعاً بعد مطلع . وقد قالوا ان أول توبة تابها كانت وهو غلام قد استوت حداثته واكتمل عنفوانه ثم ضرب حين ذلك عبده الأسود ثم أطلقه حراً حين حاجّه العبد فغلبه ، ثم راوحته التوبة حين قتل

---

(١٢٠) عيون الأخبار ج ٣ ص ١٨٢

(١٢١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٥ ـ النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨ ، ٢٢٣

خبيباً ولبس المسوح السود ، فلما راجعه القاسم بن محمد راح في مقتطعات يمنيَّة ، وهكذا ظلت التوبة بعد التوبة رَوحاً يراوحه ثم يبتعد ، فلما عزل عن المدينة عاودته التوبة في نوبة لازمة ولم ترح عنه ابداً .

ورأى عمر نفسه مطوية الضلوع على ظلم ، ويده قابضة على مظالم ، رآه يملك ارضاً لا يستطيع حصرها ، وأكثرها لم يره بعينه ولم يبذل فيه جهداً أو يستنبط ماء أو يجني ثمرة ، وانما قد جاءه كله حظاً وميراثاً وهبات ، ورآه يملك هو وبنو أبيه أرضاً في كل أرض ، ولا سجل لها في أيديهم ، وانما وجدوا أنفسهم مُلاكها ينفقون في إصلاحها ويُغلّون من ثمارها. أما الناس فضياع هلكى لا يملك اكثرهم ارضاً تغل ولا بيتاً يسكنون اليه

ورآه يلبس الديباج والخز ، ويأكل الطيّب من الطعام ويتملأ ويتطيّب ويدّهن حتى تنسخ طينة كتابه من العنبر ، والناس في آفاقها يعرون ويجوعون ، ولا ماء لهم يغسلون منه ويشربون ، فودّ عمر لو جاءته الخلافة وصحّت رؤياجده عمر بن الخطاب ليخرج من ذلك كله : يخرج من الثياب حتى يكاد يعرى ، ومن الطعام حتى يجوع ، ومن المال حتى لا يكون في الارض فقير مثله . ودّ ذلك واستحسنه واستقر عليه ، ثم ما زال يستحسنه ويمكّن له حتى صار ملته واعتقاده ، وبينما كان يراود نفسه كانت تنجذب بين قواها ، فصار يقوّي رأيه ويشد من عزمه حتى غلب شهوته وسيطر على غضبه ، وبعد طول معالجة وإدمان تقويم صار يعتزم ويعمل ويعتاد

حتى حصل على الخُلق الذي يريد ، ثم نوى ، فلم تبق الا كلمة الحظ والقدر يقولها اذا شاء وحين يشاء !

وكأنما صار عمر بادىء ذي بدأة ذا بصيرة ونفاذ ورأي حكيم حين عرف الفقه الاكبر ، وكان عمر أحكم رأياً وأعظم فقهاً إذ لم يرَ أن يخرج من فوره من ماله وطعامه وطيبه ، وقد كان من الخطأ أن يخرج في حينه الى الزهد ، فان النفوس أمارة ، وان الأمراء بالمرصاد ، ولن ينفعه ذلك أو ينفع الناس . فكتم أمره ونيّته حتى عن مزاحم مولاه ، لئلا يُفزع الطامعين ، وقد عرف أنه لا حيلة للأمة إنْ طُلب اليها أن تجمع نفسها ، بل لعلها لا تقبل ، إذ يثير الأمراء رعاع الناس ويستعدون الجهلاء ، فلا حيلة له في عمل شيء ما لم يأته من طبعه . وانتظر عمر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً !

وبدأ عمر يأخذ نفسه رويداً رويداً بالعفة والاعتدال والنصح متحمساً في كل ذلك . وكان من الخطأ ألا يبدأ بنفسه حتى يصنع منها المثال والقدوة . وكان هناك ما هو أكبر من الخطأ ، وذلك اذا تظاهر عمر بالتقشف والزهد ولبس ثوب النصيح دون أن يتخذ لنفسه حقائق هذه الاشياء ويجعلها لزاما له ، لأنه ما من مستور إلا وهو ينكشف ويظهر ، وإن للرعية مهما طغت عليها الجهالة لعيوناً تبصر وقلوباً تدرك ، فاذا لم ينكشف المخبوء ويصرْ عيانا خاضت فيه الرعية ظناً وشبهة . ومن سوء حظوظ الرعاة انهم يؤخذون بالشبهة والظن كما يؤخذون بالعيان ، بل الظن أوسع طعناً وأسوأ عاقبة وأشد نيلا !

وكذلك اهتدى عمر الى الصواب كله، فاتخذ العقيدة، وجعل يوغل في الايمان بها ويحطم من حدة نفسه ويكسر من غلوائها فلما حانت الفرصة انطلق كالعاصفة أقسى دورتها حول نفسها ،فاذا ابتعدت أخذت تهدأ ، فاذا كانت في الأطراف لم تُحسّ إلا انها ريح أو رخاء .

ثم أدخل عمر الأمراء وكلّ ذي سلطان في حسابه على اختلاف مراتبهم وبلدانهم ، كما دخل هو في حساب نفسه. وقد عدّ الأمراءَ والعمال والقضاة ملوكَ الناس. وحين أخذ يعدُّ ما في ايدي الامراء من المال فزع وارتعب،لأنه رأى المال يسيل من أطراف البلدان كلها اليهم ، حتى جمعوا في أيديهم شطر المال أو ثلثيه . جمعوا في أيديهم نصف مال الدولة أو ثلثيه ! وكان النصف الآخر أو الثلث الباقي يُنْفَق بعد ذلك على ما يشاء الخليفة ويشاء الأمراء . وانتظر عمر الزمان حتى يجود وتفلت من يده ساعة تجري لهذه الأمة المنكودة بحظ سعيد وقدر لطيف !

أما علماء الأمة فمقصيّون ، وأما صلحاؤها وعبّادها فطرداء وقتلى ومحبوسون ، ولم يكن لمظلوم أن يشكو ، ولا سيما اذا كان الظالم أميراً ، فاذا كان الخليفة فانه لا يُقاضى ولا يتّهم ولا يخاطب باسمه ، وهكذا سنّ عبد الملك بن مروان مراسم الأبهة ، فالملك فوق القانون . وكان عبد الملك يقول : لا ينبغي لخليفة أن يناشد ولا يكذّب ولا يسميه أحـــدٌ باسمه . وجرى في إثره ابنه الوليد .

●

وكذلك كان مقتل خبيب بن عبدالله وعزل عمر عن المدينة نعمة نزعت عن عمر ثوب الفتنة ، ونجت بنفسه من التيار الجارف ، وأبرمته بالظلم ، فتهيأت نفسه للعدالة والرحمة ، وعافت المظاهر إذ شبعت منها ولم تغن شيئاً ، ومهدتها للزهد والتقشف دون أن تحسّ لها غير اللذة والرضا . ولم يَعُد عمر يخطو خطوة إلا وهو ينويها ويقدّر لها ويعرف ما بعدها ، وقد شهد له بذلك هشام بن عبد الملك إذ قال : ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية [١٢٢]

إلى دمشق

فلما تمّ له اليقين واستوت لديه الارادة شمّر مع مزاحم يدع السويداء ويريد دمشق ليقيم بها ويقتحم على الوليد مجلسه ويقلق جنبه ، وقديماً كانت له تجربة جريئة بنصح عبد الملك حتى أغضبه [١٢٣] . فلما كان بدمشق مقيما لم يَرَ الوليد بداً من أن يقربه اليه لصلاته به من القربى والصّهر ، ولم يَرَ بداً أن يستنصحه في بعض الأمر إذا حزَب ، أو إذا حانت للخليفة ساعة رضا ولين ، ولعله قربه واستنصحه ليكفّه عنه ، ولم يكن الوليد قد قطع ودّه كله بعمر وإنما كان قد تغيّر عليه . وعمر كان فقيهاً محدثاً مجتهداً لقيه أهل الشام يحسبون أنهم علماء فرأوا أنفسهم تلاميذه . فاتخذه الوليد للرأي والفتيا .

---

(١٢٢) ابن عبد الحكم ص ٣١

(١٢٣) ابن الجوزي ص ٣٦

أما عمر فأقبل على الوليد متغيراً خشناً ينصحه في ولاته وعماله كلما سنحت له الفرصة، ويعنف عليه في النصح ولا يبالي أن يغضب أو يتمزق غضباً . وذات يوم قال عمر للوليد : يا أمير المؤمنين ، إن عندي لك نصيحة ، فاذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فسلني عنها ! قال الوليد : ما يمنعك الآن ؟ قال : أنت أعلم إذا اجتمع لك ما أقول فانك أحقّ أن تفهم .

فمكث الوليد أياماً ثم دخل عليه عمر في جماعة من اهل الشام ، فقال الوليد : نصيحتك يا أبا حفص ! ولعله أراد أن يحرجه فيخفف ولكن عمر لم يخنف من عنف النصح فقال : انه ليس بعد الشرك اثم اعظم عند الله من الدم ، وان عمالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول ، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به ، فاكتب اليهم الا يقتل احد منهم أحداً حتى يكتب اليك بذنبه، ثم يُشْهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك ! فكتم الوليد غيظه وقال : بارك الله فيك يا أبا حفص !

ثم رأى الوليد ان يجرب فكتب الى الأمصار وخصّ الحجاج ابن يوسف بما في نصيحة عمر ، فكان جواب الحجاج أن أرسل الى الوليد برجل حروريّ من الخوارج كان يسبّ الخلفاء من بني امية ثم يسمو في ذلك صعُداً ويزداد سباً حتى يبلغ الوليد فيستوفي له الشتم والسب لأنه يراه أجور الخلفاء وأظلمهم ولا سيما حين استعمل الحجاج على العراق .

وأرسل الوليد الى عمر في الظهيرة ، في وقت لم يكن يرسل

اليه فيه ، فحضر فدخل عليه فاذا هو قاطبٌ بين عينيه ، فقال له : اجلس ها هنا – وأشار الى مجلس الخصوم بين يديه – فجلس عمر وليس عند الوليد الا خالد بن الرّيان قائماً بسيفه ، فقـــال الوليد للحروريّ : ما تقول في فلان وفي فلان من الخلفاء ؟ فسبهم الحروريّ ولعنهم ، ثم قال : وما تقول فيّ ؟ فقال الحروريّ : ظالم جائر جبار! فقال الوليد لحارسه خالد بن الريان: اضرب عنقه. فضرب الحرسيّ عنقه .

ثم عاد الوليد على عمر فقال له: كيف ترى فيمن سبّ الخلفاء؟ أترى ان يقتل ؟ فسكت عمر ، فانتهره الوليد وقال : ما لك لا تتكلم ! فظل عمر ساكتا لا يتكلم وعـاد الوليد واستمر عمر في صمته ، ثم ما زالا هذا يسأل وهذا يسكت حتى بَرِم عمر بالوليد فقال : يُنَكّل به ! فازداد غضب الوليد لأنه كان يريد من عمر أن يفتي بقتله . ثم ترك مجلسه ودخل الى بيته . وأشار ابن الريان الى عمر بالانصراف . قال عمر : فانصرفت ، ومـا تهبّ ريح من ورائي الا وأنا أظن أنه رسول يردني اليه ! [١٢٤]

وما هي الا لحظة حتى دعا الوليد بعمر الى منزله ، فلمـا كان عنـده قال : ماتقول في هذا يا أبا حفص ؟ أصبنا أم أخطأنا ؟ فقـــال عمر : ما أصبتَ بقتله ! ولغيرُ ذلك كان أسدّ وأصوب ! كنتَ سجنتَه ان بدا لك أو تعفو عنـه ! فقام الوليد مغضبا ، وخرج عمر يجر ذيل خيلاء جديدة هي ذيل خيلاء النصاح اذا كانوا من الصادقين ، وخرج في اثره خالد بن الريان وقد رأى غضب

(١٢٤) ابن عبد الحكم ص ٢٥

مولاه المرة بعد المرة ورأى كيد عمر له فقال لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص ! لقد راددتَ أمير المؤمنين حتى ظننت انه سيأمرني بضرب عنقك ! فاستعظم عمر ان يقول له هذا الحرسيّ اللئيم مثل هذا الكلام واغتاظ عليه ولكنه كتم غيظه وسأله قائلاً: ولو أمرك كنت تفعل ؟ قال : إي لعمري! [١٢٥] فهزّ عمر رأسه ومضى وقد أسرّها في نفسه لخالد بن الريان .

ورأى الوليد ذات يوم أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعلها في أولاده، فرأى أن يستعين عمر على ذلك فراوده على ان يخلع سليمان بمعونته فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك ؟ [١٢٦]

ومن ثمّ ازدادت شقة الخلاف بينهما ، وباعدت بينهما نبوة ووحشة ، فتناول الوليدُ عمر بلسانه ، فردّ عليه عمر ، فغضب الوليد غضباً شديدا وأمر بعمر فعُدل به إلى بيت فحبس فيه ثلاثا لا يدخل عليه أحد ، ثم أمر الوليد باخراجه إن وُجد حياً فأدركه أهله وقد أصاب رَقبتَه وجع شديد ، فلم يزالوا يعالجونه حتى صار الى العافية [١٢٧] .

وأذن الله أن يموت الحجاج سنة خمس وتسعين ، فسجد عمر لله شكراً حين بلغه موته ، ومات قرة بن شريك العبسيّ والي مصر في اليوم أو الشهر الذي مات فيه الحجاج [١٢٨] . وطالما عتب عمر

(١٢٥) ابن عبد الحكم ص ١٣٩
(١٢٦) ابن الجوزي ص ٤١
(١٢٧) ابن الجوزي ص ٢٤٨
(١٢٨) ابن الاثير ج ٥ ص ٩

على الوليـد في استعماله قرة بن شريك عـلى مصر فلم يسمع له [١٢٩]
وطالما عتب الناسُ على الوليد فيه فلم يسمع لهم حتى قال أحـــد
شعرائهم يلوم الوليد حين عَزل عبد الله بن عبد الملك وولاه :

عجبا ما عجبتُ حـــين أتانا أن قد امّرت قرة بن شريكْ
وعزلتَ الفتى المبارك عنـــا ثم فيّلتَ فيه رأي أبيك [١٣٠]

وكان عمر يقول في الحجاج : لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة فاخرجت كل أمة خبيثها ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم ! [١٣١] .

وأحست الرئتان : مصر والعراق أنهما تتنفسان، وكانتا ظنتا أنهما فقدتا الحياة ، وجاء الخبر الوليد فاغتم لموت رجلين زلزل موتهما عرش خلافته — كما خيل له - وأسرع مخطئاً فجمع الناس وصعد في المنبر كالناعية الثكلى وهو حاسر شعثان الرأس ، فنعـــاهما للناس وقال — وكأنما خبطته الضـلالة فعثر — : والله لأشفعن لهما شفاعة تنفعهما !

وكان عمر بين الناس والوليد يرّجم بهذا الكلام ، فسخر من قوله وعجب لضلالته ، وقال لمن حوله : انظروا إلى هذا الخبيث . لا أناله الله شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم . وألحقه بهما ! [١٣٢] . فلما نزل الوليد عن المنبر قام اليه الناس يعزونه الا عمر فانه لم يقم ، فقال له الوليد : ما منعك أن تعزيني بالحجاج كما عزاني الناس ؟ فقال عمر :

---

(١٢٩) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨
(١٣٠) فيّل الرأي : خطأه وقبحه . فتوح مصر واخبارها ص ١٣١
(١٣١) ابن الجوزي ص ٨٩
(١٣٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

يا أمير المؤمنين ، انما الحجاج منا ، فنحن نعزّى به! [١٣٣] فقال الوليد : صدقت ! ولم يدر بما قاله عمر وهو على المنبر وبما كان في نفسه من الفرح بموت الحجاج .

وكان الوليد لحانا ، لا يحسن النحو ، فخطب يوماً فقال : ياليتها كانت القاضية ، ووصل الكلام فضم التاء فصارت «القاضيةُ» فقال عمر بن عبدالعزيز : عليك وأراحتنا منك ! [١٣٤]

عمر وسليمان

ولم يمض غير قليل حتى ذهب الوليد الى رملة فلسطين عند لُدّ [١٣٥] ، وكانت الرملة مدينة عظيمة ، وقد قامت رباطاً للمسلمين ، فذهب الوليد يزورها فمرض هناك ، ولم يلبث أن مات ، فولي الخلافة أخوه سليمان ، وكانت فرحة عمر لا تحدّ ، فوقف يومئذ في دمشق وتولّى بنفسه أخذ البيعة لسليمان ، في نفس اليوم الذي مات فيه الوليد [١٣٦] .

وجاء سليمان بن عبدالملك أخف من الوليد وطأة وألين عريكة وأسمع للنصح وأسدّ في الرأي ، فضم إليه عمر يستشيره ويستوزره ، ووجد عمر في سليمان الحصبَ الذي يزرع فيه فينمو زرعه ، فلزمه يهديه ويرشده ، ولزمه سليمان يسأله ويستفتيه ، وصارت له عنده منزلة وناحية وخاصة دون جميع بني مروان [١٣٧] .

---

(١٣٣) ابن عبد الحكم ص ٢٤

(١٣٤) ابن الأثير ج ٥ ص ٥

(١٣٥) الرملة واللد بلدان معروفان الى اليوم بفلسطين .

(١٣٦) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٧

(١٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٤٣

وكان كلما حركت سليمانَ الغلظة أطفأها عمر وأخمدها . ثم حدث بين عمر وسليمان كلام كان ختام ما بينهما من مهارشة بين رجل يظن نفسه سيداً على الناس فيلقي القول جزافا ، وبين رجل آخر لا يعنيه ان يكون صديقاً للخليفة على باطل ، وانما يعنيه أن يكون صديقاً لرجل يعرف نفسه ويُحْكم قوله .

خرج عمر مع سليمان ، وسليمان يريد الصائفة [١٣٨] ، فالتقى غلمان عمر وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا ، فضرب غلمانُ عمر غلمان سليمان ، قد طغت حدة عمر فأعدى غلمانه بها فضربوا غلمان الخليفة وأبوا أن يسبقوهم على الماء فيستسقوا قبلهم . وشكا غلمانُ سليمان اليه فقال لعمر : ضرب غلمانُك غلماني ! قال عمر : ما علمت ! قال : كذبت ! فغضب عمر وقال : ما كذبتُ منذ شددتُ عليّ إزاري وعلمت أن الكذب يضرّ أهله ! ثم قام من مجلس سليمان وهو يقول : وإن في الأرض عن مجلسك هذا لسَعَة [١٣٩]

ولم يكف عمرَ ما قاله وما فعله ، فتمادى وغلا وتجهز يريد مصر ويفارق الشام ، فبلغ الخبر سليمان فشق عليه . وعلمتْ عمة لهما فدخلت بالصلح بينهما ، فقال لها سليمان : قولي له يدخل عليّ ولا يعاتبني ، فدخل عمر ولم يعاتب ، فاعتذر اليه سليمان وقال له : يا أبا حفص ، ما اغتممتُ بأمر ولا أكربني همّ الا خطرتَ فيه على بالي ! فأقام عمر عند سليمان [١٤٠]

---

(١٣٨) الصائفة : غزوة الصيف

(١٣٩) ابن الجوزي ص ٣٦

(١٤٠) قصص العرب ج ١ ص ٢٣٢

ورأى عمر في سليمان نهمةً الى الطعام فما يكاد يشبع ، رآه أكولاً يجاوز المقدار ، وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية – وعليه جبة الوشي المثقلة – فانهمه وحرصه على الطعام - فكان يدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارّة فيفصلها ١٤١ ، وقد عجب عمر من نهم سليمان غير أنه انتوى أن يسد عليه مسالك الجشع لعله يقلع ويهتدي . وكان اذا صحبه صام فتركه سليمان صائماً وأكل فلم يُبْقِ على طعام .

وحج عمر مع سليمان عام سبع وتسعين ١٤٢ ، وزار سليمان المدينة وعمر معه ، وفعل سليمان بالمدينة مثلما كان فعَلَ الوليد : أعطى مالا كثيراً وهدايا، ثم ظن أنه أرضى الناس كما ظن الوليد. وكان عمر قد عرف عيوب الهدايا وعيوب مواضعها وأثرها في نفوس من وهبوا ومن لم يوهبوا ، وأنها انما تشحن النفوس حقداً وعداوة . فلما خلا سليمان الى عمر بعد العطاء وبذل المال ومظنة الرضا قال له : كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص ؟

قال أبو حفص : رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم ! فأمسك سليمان عن حديثه ، وانطلقا ، فلما كانا بعقَبة عُسفان عند الجحفة على طريق مكة ، نظر سليمان الى معسكر عسفان فأعجبه ما رأى من حُجَره وأبنيته فقال : كيف ترى ما ها هنا يا عمر ؟ فقال : أرى الدنيا يأكل بعضها بعضا ، أنت

---

(١٤١) اليعقوبي ج ٣ ص ٤٣ – عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٢٧

(١٤٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢

المسئول عنها والمأخوذ بها [١٤٣]

فانطلقا ، حتى اذا جاءا مكة وجدا بها غضباً شديداً ، فقرّت عين عمر وقلق جنب سليمان ، وكان سليمان قد أراد أن يرضي أهل مكة ويتألف قلوبهم وكان استنبط لهم ماء عذبا هو وخالد القسري عاملها ، ونبع الماء وفاض ، ولكن سليمان علم أنه حينما دعا خالدٌ الناس الى الشرب من مائه العذب نفر الناس عن مائـه ولم يجتمع عليه اثنان [١٤٤] فوجم لذلك سليمان .

فانطلقا ، حتى أتيا عرفات ، فرأى سليمان خلقاً كثيراً قـد أتوا رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق ، فطرب سليمان لما رأى ، قد ظن الأمن في زمانه مدّ رواقه عـــلى الآفاق ، فجاء الناس على طرق ممهدة ، وميسرة موفورة ، فقال لعمر : أما ترى يا أبا حفص كثرة الناس بالموسم ؟

ورأى عمر في زحمة الناس في الحج وبحـــة اصواتهم في التلبية وفيض دموعهم عند الكعبة والاستار — رأى في ذلـــك وسمع غير ما يرى الخليفة ويسمع ! وكان يعـلم أن الناس يشكون من ظلم صارخ رزحوا تحته وناءوا به ، وكان يراهم يبغضون سليمان ويكرهون أعماله ، وما جاروا بالتلبية في الطواف والسعي وعند الجبل في صرخة وضراعة الا ليخلصهم الله من الظلم . كان عمر يرى ذلك ويسمعه ويعلمه ويؤمن به ، فحين قال له سليمان : امـا ترى كثرة الناس بالموسم قال له عمر : هؤلاء خصماؤك يا امير المؤمنين !

(١٤٣) ابن الجوزي ص ٤١

(١٤٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٧

فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم !

ثم غامت السماء في عرفات وعزف الرعد وخطف البرق خطفاً وعزفاً شديدين حتى فزع اهل الموقف ، وكان سليمان أخوف الناس وأفزعهم ،فنظر الى عمر ليستند اليه ويشد أزره به فاذا عمر يضحك. فقال له : أتضحك يا عمر وأنت تسمع وترى ما تسمع وترى ؟ فقال عمر : يا أمير المؤمنين ، هذه رحمة الله قد أفزعتك ، فكيف لو جاءك عذابه ! [١٤٥]

●

وأغلظ سليمان بن عبد الملك على أهل مصر وحرّض عليهم الولاة ، وكان أسامة بن زيد التنوخي صاحب خراج مصر قد كتب اليه سليمان : احلب الدّر حتى ينقطع والدم حتى ينصرم ، ففعل أسامة ما أمر به سليمان ، وأصاب أهل مصر بأول شدة دخلت عليهم ، فقال سليمان يوما — وقد أعجبه ما فعل أسامة — : هذا أسامة لا يرتشي دينارا ولا درهما ! فلم يملك عمر نفسه من حدة وغضب فقال له : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشي دينارا ولا درهما ، فقال له سليمان : ومن هو ؟ قال : عدو الله ابليس : فغضب سليمان وقام من مجلسه [١٤٦]

واستحضر سليمان يوماً يزيدَ بن أبي مسلم الثقفي مولى الحجاج وكاتبه وخليفته ، فرآه سليمان دميما كبير البطن فقال : قَبَّح الله رجلاً أجرّك رسنه وأشركك في أمانته ! فقال يزيد : يا أمير

---

(١٤٥) ابن الجوزي ص ٤٢

(١٤٦) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣١

المؤمنين ، رأيتني والأمور مدبرة عني ولو رأيتني وهي مقبلة إليّ لاستكبرت مني ما استصغرت واستعظمت مني ما استحقرت ؟ فقال سليمان : قاتله الله ! ما أسدّ قوله وأعضب لسانه ! ثم قال له: أترى صاحبك الحجاج يهوي في النار أم قد استقرّ في قعرها ؟ فقال يزيد : يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذاك ، فان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة ! وعن يمين الوليد ويسار عبدالملك يجيء الحجاج ، فاجعله حيث أحببت !

وأخذ سليمان ببلاغة الرجل وفتنه قوله فقال : قاتله الله ! ما أوفاه لصاحبه ! إذا اصطنعتُ الرجال فليُصطنع مثل هذا ! ثم همّ سليمان باستكتابه وليصير من رجاله وأعوانه ، فقال له عمر : يا أمير المؤمنين : لا تحي ذكر الحجاج ! فقال : اني كشفت عنه فلم أجد له خيانة في دينار ولا في درهم ، فقال عمر ؟ ألم أقل لك يا أمير المؤمنين إن إبليس لم يخن فيها ؟ وهذا قد أهلك الخلق ! فتركه سليمان [١٤٧] ، ثم ما زال عمر به حتى جعله يتتبع أصحاب الحجاج ويسومهم العذاب .

●

وقعد عمر لأهل الشام يستفتونه ، وكانت المسألة تثقل عليهم فيلجأون اليه ، ورد اليه سليمان القضايا والمسائل الصعاب ، ثم حدث أن رأى سليمان ابن النساء بنات الخلفاء لا يرثن في العقار فنشأت قضية ذات تعقيد ، وتلك أن رجلاً جاء يطلب ميراثاً له من بعض

---

(١٤٧) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٤ ـ المطالعة التوجيهية ص ١٤٨

بنات الخلفاء ، فقال سليمان : ما اخال النساء يرثن في العقار شيئاً ، فقال عمر : يا سبحان الله ! قال سليمان : يا غلام ، اذهب فأتني بسجل عبد الملك الذي كتب فيه ذلك ، فقـــال عمر : لكأنك ارسلت الى المصحف !

فقال أيوب اكبر اولاد سليمان ـ وكان حياً لم يمت ـ والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند امير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه ! فالتفت اليه عمر وقال له : اذا افضى الامر اليك والي مثلك ... واراد ايوب ان يرد فقال له سليمان : مه ! لابي حفص تقول مثل هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا امير المؤمنين ما حلمنا عنه [١٤٨]

●

لقد ظل عمر يحزم بعزمه ورأيه كل امر ، ويحترس ان يغفل أو يغلبه النوم ، وقيّد نفسه وثابر على ما بدأ به حتى يصبح سيد نفسه ، إذ قهرُ النفس لا يتم في لحظة ولا ينشأ فجأة وارتجالا ، ولكنه يحصل بتطبيق سلسلة مترابطة منسقة من الكـــلام والاعمال التي تطابق الاقوال . وهكذا بـــدأ عمر يكون نصيحاً ، وتكون نصائحه ظاهرة بإقاء تلقى في آذان الخلفاء والامراء والعمال بغير لين او التواء ، ثم جعل يخضع افعاله وتخيلاته ومشاعره لهذه السيطرة . وببطء وهوادة استطاع ان ينمي استعداده ويقوي سلطانه ، ويسد ثغرة الفراغ من نفسه ، ثم عرف بعد وأيقن أنه يستطيـــع او قد استطاع .

(١٤٨) ابن الجوزي ص ٣٧

مرض سليمان

واصابت التخمة سليمان فمرض الموت على فجأة ، فلمـــا أيقن بالموت قال لرجاء بن حيوة الكندي : انه منذ مات ابني ايوب لم أجد بعده من يصلح للخلافة من أولادي – وكانوا صبياناً والخلافة لا يليها الصبيان – ففرح رجاء بما قال سليمان ، اذ كان يتمنى ان ينتقل الامر الى رجل يصلح به الناس ، ولكنه امسك فلم يتكلم.

ودنا الموت فازداد قلق سليمان ، فطلب الى رجاء ان يعرض عليه اطفاله في السيوف ودروع القتال واردية الحرب لعله يرى في أحدهم مخايل رجولة اوشجاعة فيوصي له ، فلبى رجاء مستعجـــلاً وجعل يعرضهم في زيّ زيّ وعلى هيئة هيئة ، ومرّ الصبية الصغار بين يدي ابيهم ، وهم يحاولون ان يهربوا من الجلود التي اثقلتهم ، وكأنما كانت رؤوسهم كرؤوس السلاحف الصغيرة تبدو وتختبىء وراء أكمات ضخمة من الأحجار ، فجعل سليمان ينظر اليهم ويقول :

إن بنيّ صبية صغار أفلح من كان له كبار

وكان عمر حاضراً فقال : يقول الله تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ». وأعاد عمر قول الله حين أعاد سليمان قوله ، فاتعظ سليمان ثم نوى في نفسه ليعقدنّ عقداً لا يكون فيه للشيطان نصيب [١٤٩]

وخلا رجاء بسليمان فقال الخليفة : أشر عليّ يا رجاء فيمن أعهد إليه من بعدي ، وكيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟

فقال رجاء ولم يتلبث : أعلمه – والله – فاضلاً برّاً مسلما !

(١٤٩) ابن عبد الحكم ص ٣٠

قال سليمان : هو والله على ذلك ، ولكن كيف ببني عبد الملك؟ ولئن وليتهُ ولم أولّ أحداً منهم لتكوننّ فتنة ، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم ، إلا أن أجعل احدهم بعده ، فأجعل بعده يزيد بن عبد الملك .

قال رجاء : اكتب العهد واختمه ، واطلب البيعة لمن فيه وهو مختوم ، وأنا أفعل ما يرضي الله ويرضيك . فتناول سليمان بيده القلم والصحيفة وكتب بيده وخطه عهده لعمر وليزيد بن عبد الملك من بعده ثم ختمه ابن أبي نعيم صاحب الخاتم، ثم طواه سليمان ودعا بأهل بيته من الأمراء وأهل البيعة ، فطلب اليهم أن يبايعوا لمنْ في العهد المطويّ المختوم ، فبايعوا ، وأسلمه لرجاء .

قال رجاء بن حيوة : فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : يا أبا المقدام ، ان سليمان كانت لي به حرمة ومودة ، وكان بي برّاً ومُلطفاً ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إليّ من هذا الأمر شيئاً ، فأنشدك الله وحرمتي إلا أعلمتني ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ذلك . قال رجاء: فقلت له : لا والله ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً ! فذهب غضبان [١٥٠]

ثم عاد عمر من قريب على رجاء فقال له : أذكرك الله يا رجاء أن تذكرني لأمير المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك، فوالله ما أقوى على هذا الأمر ! فانتهره رجاء وقال له : إنك لحريص على الخلافة ! أتطمع يا عمر بن عبدالعزيز أن أشير عليه بك؟ فاستحيا عمر ومضى . وقد كان رجاء فرغ من أمره ولكنه أراد اخفاءه عنه

(١٥٠) ابن الجوزي ص ٤٨

لئلا يحدث من عمر شيء وتكون فتنة بين الناس [١٥١]

والحقُّ أن عمر لم يكن يريد الخلافة ولم يكن يسعى لها ولكن وقع في قلبه ان سليمان مستخلفه ، وكان ذلك منذ زمن بعيد مضى ، ومنذ مات أيوب بن سليمان ، إذ كان قدم على سليمان بالنيروز والمهرجان وهو خليفة ، فصُبَّتْ إليه الهدايا في آنية الذهب ومرّوا بها عليه ، وكان عمر بجانبه ، فكلما مرّ بعمر صنف منها قال له سليمان : كيف ترى هذا يا بن عبد العزيز ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنما هو متاع الحياة الدنيا ! فقال سليمان : فوالله لو وليتَه ما أنت صانع فيه ؟ قال : اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء . فقال سليمان : اللهم اشهد .

ثم جعل كلما مرّ به على شيء قال له هذه المقالة ، فيقول له عمر : اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء ، ويقول سليمان : اللهم اشهد حتى فرغ [١٥٢]

رجاء بن حيوة

وكان رجاء بن حيْوة بن جرول الكندي من أهل الاردن العلماء ، وكان أعبد اهل زمانه من اهل الشام مرضياً حكيماً صاحب بلاغة وأناة ووقار ، وكانت الخلفاء تعرفه بفضله فيتخذونه وزيراً ومستشاراً وقيماً على عمالهم واولادهم ، وقد وقف بين الخلفاء وقسوتهم وشهواتهم مواقف كثيرة منذ عبد الملك ، بقدرة مداخله عليهم ، فلما كان سليمان أصبح لرجاء عنده من الخاصة والمنزلة

(١٥١) ابن عبد الحكم ص ٣١.

(١٥٢) بن عبد الحكم ص ١٢١

ما ليس لأحد ، وجعل سليمان يثق به ويستريح اليه .

وبعثه سليمان ذات يوم ليختبر له عمر بن عبد العزيز ويأتيه بطريقته وسيرته ، وهل هو كما يعظ وينصح ويشير أم ظاهر من القول ليس له باطن ؟ فقدم رجاء على عمر ضيفاً وأقام عنده ، ولم يألُ عمرُ عن إلطافه واكرامه وتقريبه ، وأقام عنده أياماً ، وعرف حقيقة أمره وأنه انما يفعل ما يقوله ، فأخبر بذلك سليمان . ثم رغب رجاء في صحبة عمر وصداقته على النسك والعبادة [١٥٣]

فلما استشاره سليمان في عمر أشار به فكان هو أو كان سليمان أو كانا معاً مفتاح الخير للناس .

---

(١٥٣) ابن عبد الحكم ص ١٤٣